حكايات برامج الأطفال على القنوات التلفزيونية الجزائرية
بين المحتوى اللغوي والمخيال الفني
برنامج "مع عمّو يزيد" على قناة الشروق اليومية نموذجا

د. محمد حاج هنّي/ د. جميلة روقاب
جامعة حسيبة بن بوعلي- الشلف

الملخّص:

نعيش اليوم في محيط اجتماعي يتصادق فيه الأطفال مع شخصيات تعرّفوا عليهم عبر الشاشة أكثر ممّا يتصادقون مع أقرانهم في عالم الواقع، وممّا لا شكّ فيه أنّ برامج الأطفال التلفزيونية على القنوات الجزائرية تؤدي دورا محوريّا في التنشئة الاجتماعية والثقافية لشخصية الطفل وتقويم لسانه العربي.

ويتناول البحث المخطط التربوي التعليمي للحصص الموجّهة للأطفال من خلال برنامج (مع عمّو يزيد) الذي يبثّ على قناة الشروق العامّة، وبيان أهدافه الاجتماعية وغاياته النفسية التي تستهدف هذه الشريحة من المتلقين الصغار، وقوفا على مدّة هذا النوع من البرامج وتشريح المحتوى اللغوي لها باللغة العربية الفصحى أو باللغة العامية وحتّى باللغة الأجنبية من مجموع مدّة الإرسال، وأهمّ الموضوعات المشوقة المدرجة في البرنامج التي قد تقرّب الأطفال من هويتهم الثقافية أو قد تبعدهم عنها، ومعالجة الهجين اللغوي الذي يسمم عقول أطفالنا ويُضعْضعُ تفكيرهم العلمي واللغوي من خلال أنواع الحكايات المدرجة في البرنامج وأهمّ موضوعاتها.

الكلمات المفتاحية: برامج الأطفال، المحتوى اللغوي، البرامج التلفزيونية، المخيال الفني.

1- هل من أدب الأطفال في الجزائر؟

إذا رمنا الإجابة بالتفصيل عن أدب الطفل بالجزائر، فلسنا نحصره في أدب القصة فحسب؛ بل هناك العديد من الأشكال الأدبية الأخرى على غرار: الأغاني والأناشيد الشعبية والكشفية، ومسرح الطفل، وغيرها قد ساهمت في بناء ثقافة الطفل.

بديهيّ أنّنا لا نقصد بأدب الطفل الأدب الذي يكتبه الأطفال أنفسهم؛ بل نعني به الأدب الموجّه للأطفال الذي يؤلفه الأدباء الكبار للصغار، وإن كان المفهوم يتعدى ذلك إلى الأدب الذي يكتبه الأطفال."وليس جديدا علينا أن نسمع بين حين وآخر عن شعراء أطفال يكتبون بأنفسهم أجمل القصائد المعبّرة عن صدق الأحاسيس، وأعمق المشاعر النابعة من براءة الطفولة وحاجاتها ومتطلباتها"1.

أمّا الأدب الموجه للطفل؛ "فهو الأدب الذي يكتبه الأدباء الكبار خصيصا للأطفال، وينطبق عليه ما ينطبق على أدب الكبار من تعريفات ومفاهيم، غير أنّه يختصّ في مخاطبة الأطفال، وهم بحكم سنهم يختلفون عن الكبار في الفهم والتلقي".2 لهذا الغرض تحديدا تطالعنا الأبحاث والدراسات التي أجريت حول موضوع أدب الطفل في وطننا العربي عموما والجزائر خصوصا إلى أنّ الفترة التي عرفت رواجا في الإنتاج الأدبي الموجّه للأطفال – مقارنة بمرحلة ما قبل الاستقلال- هي تلك الفترة الممتدة ما بين (1990- 2004) مقارنة بسنوات السبعينيات والثمانينيات؛ أين اتخذ المؤلفون القصة أحد الأنماط الرئيسة للتوجه بها إلى

الطفل الجزائري، فتنوعت موضوعاتها، ولغاتها بين عاميّ وفصيح، واختلفت بين القصص الاجتماعية والحيوانية والتاريخية والدينية والخيالية ومغامرات...لكنّ القصص المحكية بأساليبها التعبيرية المميزة المستمدة من صلب الثقافة الشعبية والحكايات المروية لم تنل حظها الوافر من التوثيق، ولا يزال لليوم أطفالنا يتلقونها مشافهة لا كتابة وقد لا يسمعون بها أبدا.

ومن الأدباء الجزائريين الذين كتبوا في القصّة المخصّصة للأطفال قبل الاستقلال وبعده، نذكر من بينهم: الأستاذ محمد الصالح رمضان في مغامرات كليب، وفاضل المسعودي رفقة محمد الصالح الصديق في صور من البطولة وكان هذا العمل الثنائي قد صدر عام 1958م، وديوان الأطفال الصادر في 1983م لصاحبه محمد الأخضر السائحي لتتوالى بعده الأعمال الفنية الجزائرية الخاصة بأدب الطفل.

والملاحظ على قصص الأطفال الجزائرية أنّها لا تستعمل العامية في أغلبها إلاّ بعض المصطلحات التي نقلت عن التراث الشعبي، والتي لها دلالات في الحياة اليومية طغى على الساحة الأدبية مواضيع الخيال العلمي وحياة الفضاء أو الحياة البعيدة عن الذي يعيشه الطفل، ولا سيما في مراحل نموه الأولى[3].

تؤثر ممارسة الحكي القصصي على الجانب النفسي للطفل، حيث تعتبر القصة المحكية ضرورة للتنفيس والتخلي عن الانفعالات السلبية، وتشجيعه في التعبير عن نفسه ليتخلص من الضغوط النفسية مما يدعم ثقته في نفسه ويقلل من العنف

2- قيمة البرامج الموجهة في التنشئة اللغوية للطفل:

لقد أصبح الاهتمام بالطفل وتنمية حسه الفكري والإدراكي ضرورة ملحة في ظل التحديات التي يعيشها المجتمع العربي، كونه ثمرة النواة الرئيسة لبنائه، ويمكننا الاعتماد عليه في إنشاء جيل متميز محافظ على كنوز أمته من دون الانفصال عن واقعه.

لهذا الغرض تعدّ ممارسة قراءة القصص أو سماعها مروية عاملا مساعدا على نمو القدرات العقلية للطفل، حيث تتطلب قوة الملاحظة والاستماع والتخيل والتذكر والإدراك. والطفل حينما يستمع للقصص يستدعى خبراته السابقة ويتعرف على خبرات جديدة وبالتالي يقوى ذاكرته وينمى قدرته الخيالية.

- كذلك تعمل على تزويد الطفل بمجموعة قيم أخلاقية واجتماعية مختلفة.
- تسعى لتنمية مهارة السماع (والسمع هو أب الملكات حسب رأي ابن خلدون) وتنمي لديه عادة الانتباه خاصة لدى الأطفال الذين يعانون قلة التركيز، فسيساعدهم ذلك على التخلص من هذه المشكلة.
- اكتساب خبرات جديدة في الحياة؛ كحب القراءة والبحث والاستطلاع، فيذكي لديهم الشعور بالمسؤولية تجاه ذواتهم واتجاه الآخرين.
- أمّا من الجانب اللغوي تحديدا فهي اللغة دالة على قدرة الطفل على الإدراك السمعي، والإدراك البصري، وإدراك التفاصيل، والفروق بين الأصوات، وإدراك العلاقة بين الاسم ومسماه، وبين الكلمة

والفعل، والحدث والزمان. تنشط ذاكرة الأحداث من خلال اقتران الرمز اللغوي بالحدث، وتساعد على التفكير وحل المشكلات، والتعبير عن المشاعر والاتصال بالآخرين4.

3- برنامج عمو يزيد في الميزان:

يهدف هذا الركن من حصة (مع عمو يزيد) إلى التعريف بأدب الطفل، وبخاصة القصص المحكية الموجّهة إليهم، والدور الذي من الممكن أن تؤديه تلك القصص في تنمية مداركهم ورؤاهم وعلاقتهم بالوسط المحيط، وتنمية ملكاتهم اللغوية على غرار ملكة السماع، والتأكيد من جهة أخرى على دور الوسائط الإعلامية الناقلة لقصص الأطفال، وكذا أهميّة تفعيل مثل هذه البرامج التلفزيونية وتحسين آدائها لتتمكّن بشكل أو بآخر في المساهمة فعليّا في تطوير ثقافة الطفل إلى جانب التعريف بأنواع قصص الأطفال والعلاقة بين تلك القصص المحكية والمراحل العمرية للطفولة.

يمارس الفضاء الخارجي لبرنامج (مع عمّو يزيد) على الأطفال نوعا من السحر الجميل، حيث نجدهم ينجذبون إلى تلك الأجواء الرائعة كالديكور و الملابس التي يرتديها بعض الممثلين المساعدين لما فيها من أشكال ورسوم وألوان، ويطربون عند سماعهم الموسيقى والأغاني، فيندمجون مع تلك العناصر الفنية الأخرى من حركات وتمثيليات للأحداث والحوارات.

لذلك يعتبر هذا البرنامج مسرحا مميّزا من الأنشطة الهامّة والأساليب الفعّالة التي تساعد في إبراز هوية الأطفال وصقل مواهبهم وإبداعاتهم وتحقيق رغباتهم وطموحاتهم. فليس كلّ ما يحكى للطفل يكون بالضرورة واقعيّا، لابد للقاص أن يستعين بعنصر التّخييل لتمرير مجموعة رسائل يعجز بسطها مباشرة للطفل، مراعاة لمستواه العقلي وإمتاعا لخياله النامي، وهذا الاصطناع للواقع أو محاكاته يخدم سلوكات حساسة في البشر، "كأن تكون الأعمال بالقول في النص المتخيّل مزعومة مصطنعة في الظاهر، كتلك التي تقوم بين الحيوانات (كليلة ودمنة) ولكن إثبات هذه الأعمال بالأقوال المتخيّلة تخفي أعمالا جادّة هي أعمال البشر التي ترمز إليها أعمال الحيوان، فإثبات انتصار الأرنب على الأسد مثلا في كليلة ودمنة يخفي عملا إثباتيّا غير مباشر يحصل على سبيل الرمز هو إثبات انتصار العالم على السلطان"5.

والطفل - الذي يتتبع هذا البرنامج التلفزيوني أو يحضره في البلاطو- بحاجة إلى هذا العنصر ليجعله دائم التخمين خلقا لأفكار مبتدعة، ومعرفة العلاقات بينها والقصة قد تكون غير مرجعية من ناحية أنّ العالم الذي فيها مقتطع من الواقع، لكنه واقع غير معيّن، ولذلك فهو عالم ضبابي لا أمارات فيه لأسماء تحدد المكان والشخصيات، ومن علامات التخييل (التبئير الداخلي)الكاشف لذهن الشخصيات، و(التبئير الخارجي)الذي يمتنع فيه عن ذكر سمات داخلية لهذه الشخصيات، إلى جانب علامات أخرى تظهر في اللجوء إلى السرد6.

4- القصص المحكية ودورها في بناء المخيال الفني للطفل:

لقد استطاع المفكر جاك لاكان أن يميّز المخيال عن الرمز والواقع من خلال استخدامه لتلك المفاهيم الثلاثة لوصف مراحل تطور الطفل في لحظة مخياله، وهو يسميها المرآة، حيث حدّدها بين الشهر السادس

والثامن عشر؛ فالذات لا تظهر إلى حيّز الوجود إلاّ بعد أن تكتسب وعيا ذاتيّا، وهو ما يحدث في هذه المرحلة العمرية، وتقوم على ما يتصوّره الطفل من تطابق المخيال مع صورته المنعكسة في المرآة[7]. لذا قسم العلماء المخيال إلى مستويات عدّة تتصل بالمراحل العمرية المختلفة، ووضعوا له أهدافا وغايات نجملها في النقاط التالية:

أ- أهدافها النفسية:

يعتبر المخيال الفني ذلك النشاط النفسي والعقلي الذي يتمّ من خلاله إعادة إنتاج بعض المواقف والأفكار بشكل جديد، ويتمّ ذلك عن طريق المعالجة الذهنية والحركية، والنشاط التخييلي غالبا ما يبدأ مع سنوات الطفولة الأولى، ويكون ذا خصائص تناسب طلاقة السلوك وحرية الحركة والتعبير ودرجة التكامل النفسي لدى الأطفال8، وبمرور سنوات العمر يمكن ملاحظة أنّ المخيال يكتسب خصائص جديدة، ومع التقدم في السن تتضاعف قدرة المرء على التخييل لتختفي بالتدريج.

ولعلّ الأطفال من أكثر الشرائح في المجتمع تأثرا بما يعرضه التلفزيون من برامج منوّعة، وخصوصا وأنّه في هذه المرحلة العمرية لا يمتلك قدرة على التمييز بين الواقع المرئي والخيال، فميل بطبعه إلى تصديق الحكايات والقصص والمغامرات التي يشاهدها ويسمعها بكلّ سذاجة، بل يعمل على تقليد شخصياتها التمثيلية من سلوكيات وحركات وألفاظ تزداد خطورة هذه الظاهرة مع ارتفاع عدد الساعات التي يقضيها الطفل أمام الشاشة وهو يشاهد البرامج التلفزيونية ومنها القصص والرسوم المتحركة.

وبالتالي نقول يميل الأطفال إلى تقليد الشخصيات التي يسمعون عنها، ويحاولون إعادة إنتاج المواقف والأحداث التي تواجههم في البيئة التي يعيشون فيها في عملية التقمص الوهمي للطفل للشخصيات التي يقدمها النص القصصي المحكي.

ب- الأهداف الاجتماعية:

تعتبر مرحلة الطفولة أهمّ مراحل النمو والتكوين لشخصية الطفل الذي يولد كالصفحة البيضاء، مجرّدا من المعلومات المتعلقة ببيئته الخارجية، لكنّه يكون مهيّئا لاستقبال المعلومات وتخزينها في لوح باله (أي في ذاكرته) بعد كلّ خبرة أو حادثة معيّنة يتعرّض لها؛ أي أنّ الطفل هو أشبه ما يكون بـ" منظمة حيوية خامّ لها صفاتها الخاصّة فعلا، ولكنّها شديدة التفاعل مع كلّ من تحتك به، فهو اجتماعيّ من صنع بيئته ولكنّه تكويني من خلال وراثته".9

ج- الأهداف الفنية:

يعدّ استخدام الخيال عند الطفل أبرز خاصيّة في اللعب الإيهامي، حيث تتخذ بعض الأشياء المألوفة والموجودة في البيت خاصيّة أو دورا لا يتطابق مع خاصيتها الحقيقية. فالطفل الذي يتخيّل العصا حصانا فيمسك بها ويضعها تحت ساقيه...ويتخيّل غطاء القدر مقود السيارة..ويتخيّل دمية كائنا يتحدث معها كأنّه يتحدث مع رفيق من رفقائه إنّما يحاول أن ينتقل إلى ما يسمّى بمرحلة الخيال المنطلق10، إنّه يرغب حقّا في ركوب الحصان وقيادة السيّارة. فالأدب الموجه للأطفال عمل فنّي جمالي قل أن يكون عملا تربويّا تعليميّا.

د- الأهداف التربوية:

لعل ما ذكره علماء النفس التربوي كفيل لبيان حقيقة مفادها هو نقص التربية اللغوية بالنسبة للنشاط الذهني لا يقلّ خطورة عن نقص الغذاء بالنسبة للطفل في مراحل النمو الجسماني، فاللغة هي القاعدة الأساسية للتفكير11 .

إن فرص تطور اللغة تستمر طيلة الحياة، فالفرصة لتعلم التركيب اللغوي والنمو تظل مفتوحة طوال سنوات ما قبل المدرسة، وتغلق في الخامسة والسادسة بينما فرصة إضافة كلمات جديدة تظل مفتوحة ولن تغلق أبدا.

إن قصة الطفل قد تبدو، من خلال وجهة نظر عجلى، غير مختلفة في تركيبتها وأشكالها عن قصة الراشد.إلا أن المقاربة المتأنية لمستوياتها البنائية العامة، والمعرفة الدقيقة بخصائص الطفولة يجعلان منها إبداعا متميزا بأدبيته الخاصة."12

كانت القصة الطفلية تراعي ميول الطفل واتجاهاته الذهنية والعقلية والجسمية والوجدانية والانفعالية والحسية-الحركية. وكانت تعبر أيضا عن مختلف وضعياته النفسية والاجتماعية والفكرية والتربوية والأخلاقية.

5- **بعض المآخذ على البرنامج:**

اللغة نظام من الرموز اللفظية، فالتأثيرات اللغوية تتمثل في التغيرات الرمزية الناجمة عن التعرض للسرد القصصي، ودور اللغة في التعبير، وعلاقة التعرض بكلام الطفل واستماعه13. فمن أهمّ الانتقادات الموجهة للقصص المحكية في برنامج – مع عمو يزيد- كونها عاملا من العوامل المساهمة في تدهور لغة الطفل، ففي كثير من الأحيان يستخدم معدّ البرنامج العمّ يزيد باعتباره الراوي أو القاصّ اللغة العامية في أبشع صورها، وأحطّ عباراتها خاصة في القصص المغنّاة، حيث تردّد عبارات رديئة وأحيانا مهجنة مليئة بالهنّات بإيقاعات موسيقية سهلة للحفظ.

وربّما ما دفع البعض من الأولياء المثقفين والواعين بالأمر إلى انتقاد البرنامجّ؛ أي برنامج مع عمّو يزيد لأنّه السبب في تدهور لغة أطفالنا، حيث كشفت بعض الأبحاث والدراسات أنّه عندما يقضي الأطفال ما يقارب من أربع ساعات يومياً في مشاهدة التلفاز أو اللعب بالأجهزة والألعاب الإلكترونية. وأن مشاهدة التلفاز تحل مكان اللعب مع الأقران في الهواء الطلق، أو اللعب المحفز على التفكير والاستبصار، كما أن هذه المشاهدة تحرمهم من المشاركة في الأنشطة الأسرية المشتركة، وتعرضهم إلى اضطراب النوم، وفرط النشاط الحركي، والاضطراب السلوكي، والبدانة، والتصرفات الخطرة المتهورة، ويحدّ من قدرة الطفل على التخيل.

يقول محمد الأنصاري في مقالة بعنوان "أنقذوا فلذات أكبادكم من براثن التلفزيون": إن الأطفال تحت سن ثلاث سنوات يجب أن لا يحدقوا في التلفاز بتاتاً، ومن سن ثلاث إلى خمس سنوات يشاهدون بإذن آبائهم، برامج أطفال ذات نوعية جيدة لمدة لا تتجاوز نصف ساعة ومن سن خمسة إلى سن (12) يصبح بالإمكان زيادة المشاهدة حتى ساعة واحدة في اليوم.

وفي مرحلة المراهقة يسمح بإضافة (30) دقيقة بحيث لا يزيد إجمالي وقت المشاهدة على ساعة ونصف في اليوم14.

كما تشير بعض الدراسات إلى أن المشاهدة المكثفة للأطفال ما بين عمر (2-6) سنوات يؤثر سلباً على قدرة التخيل، وتحرمه من الأنشطة الإيجابية القائمة على المحادثة واللعب المتبادل مع من حوله بهدف تطوير مهارات الاتصال وعدد المفردات والتراكيب اللغوية المعقدة.

خاتمة:

يبدو أن المتخيل تصوير إبداعي يستمد وجوده من الخيال، ويتمظهر دلاليا عبر القصص الطفولية الفنية والجمالية بمختلف أنماطها وأنواعها، بيد أن هذا المتخيل يستكشف من داخل النص المحكي، ولا يستمد من خارجه. بمعنى أن المتخيل تصوير فني داخلي، وليس تصويرا سياقيا خارجيا. وبالتالي المتخيل بمثابة صورة داخلية منفتحة ومتعددة الأطراف في أدب الطفل.

الإحالات:

1- أحمد علي كنعان، الطفولة في الشعر العربي والعالمي مع نماذج شعرية لأطفال شعراء، دار الفكر، دمشق، سورية، ط1995م، ص:160.

2- العيد جلولي، أدب الطفل ودوره في بناء الشخصية اللغوية، ديوان المطوعات الجامعية، الجزائر، ط1996م، ص:106.

3- ينظر: الربيعي بن سلامة، من أدب الأطفال في الجزائر والعالم العربي، دار مداد، قسنطينة، الجزائر، 2009م، ص:97.

4- الريماوي، 1998.

5- معجم السرديات، محمد القاضي وآخرون، دار محمد علي، تونس، ط2010، ص:78.

6- معجم السرديات، ص:77، 78.

7- ينظر: خولة الحسيني، المخيال في الفلسفة والأنثروبولوجيا، دار تموز، دمشق، د ت، ص:83

8- ينظر: مهدي حمورة، الرفيق الخيالي وارتقائية الأداء التمثيلي عند الأطفال، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1977، ص:68 وما بعدها.

9- ينظر: دور الأسطورة والحكاية في تنمية مخيلة الطفل العربي وإثرائها، عبد الرحمن عبد الخالق، دار روافد للطباعة والنشر، اليمن، ط2012، ص: 80.

10- ينظر: غالم نقاش، مسرح الطفل في الجزائر دراسة في الأشكال والمضامين، محمد بشير بويجرة، قسم الفنون الدرامية، جامعة وهران، 2010،2011 (مخطوط)، ص:81 .

11- ينظر: سيرجينو سيني، التربة اللغوية للطفل، ترجمة: فوزي عيسى وعبد الفتاح حسن، دار الفكر العري، القاهرة، مصر، 1991م، ص:31.

12- محمد أنقار: نفسه، ص:56-57.

13- ينظر: هادي نعمان الهيتي، الإعلام والطفل، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، ط2011م، ص:118.

14- ينظر: محمد عودة الريماوي، برامج الأطفال في التلفاز وأثرها في تنمية المهارات اللغوية لأطفال مرحلة المهد ومرحلة الطفولة المبكرة، الجامعة الأردنية، كلية علوم التربية، 2010، (مخطوط)، ص:80.

قائمة المصادر والمراجع:

1. أحمد علي كنعان، الطفولة في الشعر العربي والعالمي مع نماذج شعرية لأطفال شعراء، دار الفكر، دمشق، سورية، ط1995م
2. خولة الحسيني، المخيال في الفلسفة والأنثروبولوجيا، دار تموز، دمشق، د ت،
3. الربيعي بن سلامة، من أدب الأطفال في الجزائر والعالم العربي، دار مداد، قسنطينة، الجزائر، 2009م
4. الريماوي محمد عودة، برامج الأطفال في التلفاز وأثرها في تنمية المهارات اللغوية لأطفال مرحلة المهد ومرحلة الطفولة المبكرة، الجامعة الأردنية، كلية علوم التربية، 2010، (مخطوط)
5. سيرجينو سيني، التربة اللغوية للطفل، ترجمة: فوزي عيسى وعبد الفتاح حسن، دار الفكر العري، القاهرة، مصر، 1991م
6. صلاح مصطفى القوال، علم الاجتماع البدوي، دار نافع للطباعة، ط1، 1974م
7. عبد الرحمن عبد الخالق، دور الأسطورة والحكاية في تنمية مخيلة الطفل العربي وإثرائها، دار روافد للطباعة والنشر، اليمن، ط2012
8. العيد جلولي، أدب الطفل ودوره في بناء الشخصية اللغوية، ديوان المطوعات الجامعية، الجزائر، ط1996م،
9. غالم نقاش، مسرح الطفل في الجزائر دراسة في الأشكال والمضامين، محمد بشير بويجرة، قسم الفنون الدرامية، جامعة وهران، 2011،2010 (مخطوط)
10. محمد القاضي وآخرون ، معجم السرديات، دار محمد علي، تونس، ط2010
11. مهدي حمورة، الرفيق الخيالي وارتقائية الأداء التمثيلي عند الأطفال، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1977
12. هادي نعمان الهيتي، الإعلام والطفل، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، ط2011م